بسم الله الرحمن الرحيم

استهلال

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير المرسلين..

وبعد:

فإن فن الرواية قد انتقل نقلة كبيرة في العقود الأخيرة، ونافس الشعر العربي في المكانة والتأثير، وصار له قراؤه ومحبوه، وأمسى الحكي- إذا كان مشوّقًا- يؤثر تأثيرًا كبيرًا في المتلقي، ويشده إلى الحكاية حتى يتابع مصائر الشخصيات ونهاية الأحداث، لذا باتت الرواية وسيلة مهمة في نقل الأفكار والترويج لوجهات النظر؛ إذ إن تأثيرها يتسلل بنعومة وسهولة إلى الوجدان والعقل، دون مقاومة تذكر.

وقد تنبه إلى ذلك الدارسون والنقاد والمفكرون والكتاب، حيث وجدوا من خلالها عالمًا يتم تقويضه، وعالمًا يتم بناؤه في النفوس والقلوب والأفئدة قبل العقول والأذهان والأفكار.

ويبدو أن أنصار عالم التقويض أكثر من أتباع عالم البناء في لغتنا العربية، وقد استغلوا الفن الروائي لتحقيق أهدافهم وأغراضهم بصورة موسّعة، تجاوزوا فيها القواعد الفنية والتقاليد الأدبية، وساعدهم على ذلك مناخ السيولة الاجتماعية والفكرية، وتحكّم القوى المعادية للقيم

الجمالية والإنسانية العليا، الحريصة على مساندة الاستبداد والطغيان، المتماهية مع الثقافات المادية والوثنية..

التقويض

في هذا المناخ تصدر عالم التقويض المشهد الثقافي في معظم البلاد العربية، وأخذت وسائل النشر والإعلام والتعليم وإنتاج الفنون تروج لهذا العالم تحت مسميات مختلفة مخادعة، فانهارت القيم الجمالية، وتوارت قيم الإتقان، وطفح على سطح المشهد الثقافي أصحاب المواهب الضحلة وأصحاب الأفكار المضادة للهوية، بات كل صاحب موهبة حقيقية وفكر جاد منبوذًا في المؤسسات الرسمية وغير الرسمية؛ لأن المناخ الذي يعيش السيولة لا يتقبل جدية الفكر ولا أصالة الموهبة.

وكان انتشار ظاهرة الإرهاب في العقود الأخيرة فرصة ملائمة لأصحاب الهوى من خصوم الإسلام والمسلمين؛ كي يفيدوا من كتابة الرواية تشهيرًا بالإسلام وتشويهًا، مع وصمه- وحده- بتهمة الإرهاب في تشريعاته وسلوك أفراده دون استثناء. ومع أن الإرهاب قديم وله وجوه متعددة، فإن كتاب الرّواية المضادة للإسلام، لم يتوقفوا عند إرهاب الحكومات المستبدة أو المتجبرة، أو المؤسسات المهيمنة أبدًا، ولم يشيروا إليه بوصفه سببًا لإرهاب الأفراد أو الجماعات!

لقد اتخذوا من بعض القضايا والأحداث الطارئة مناسبات جيدة، لهجاء الإسلام وتسفيهه، وتحميله مسؤولية الجرائم الإرهابية، ووصل الأمر ببعضهم إلى اتهام الإسلام وتشريعاته صراحة بالإرهاب، ويحفل موقع مشهور على الشبكة الضوئية اسمه "الحوار المتمدن" بمئات المقالات الهجائية، والدراسات غير العلمية، تتهم الإسلام ورسوله- صلى الله عليه

وسلم- بالإرهاب. خذ على سبيل المثال مقال بولس سلامة، "الإرهاب هو الإسلام.. والإرهاب هو الإسلام.. رديفان متلازمان"- الحوار المتمدن، ١٥/ ١٢/ ٢٠١٥م. وعنوان المقال يغني عن استعراض متنه. وهناك كثيرون ممن يحملون أسماء إسلامية وخاصة في الشقيقة تونس، يردّدون الاتهام ذاته، ويرون أن القرآن الكريم وتشريعات الإسلام إرهابية في جوهرها وبنيتها، وهؤلاء وأشباههم ينتمون إلى الفكر المادي أو الغربي الوثني، فضلًا عن الفكر الطائفي المتمرد!

فرصة ذهبية

ومن ثم كان وقوع ما يسمى الفتنة الطائفية، والظهور المريب لما يسمى تنظيم الدولة الإسلامية (داعش) فرصة ذهبية لإغراق المكتبات بالروايات التي تتحدث عن الإرهاب الإسلامي كما يسمونه، وقام عبد المالك أشهبون بإعداد قائمة أولية بمائة رواية عربية تقريبًا، تضم معظم ما نشر من روايات أبطالها إرهابيون أو تعالج أحداثًا إرهابية، معظم كتاب القائمة إلا نادرًا يقفون في الجانب المخاصم للإسلام، أو المناهض له أو الموالي للسلطات المستبدة في بلاده، وبعضهم تبدو ثقافته سطحية فكرًا وأدبًا ولغة، وكتاباته لا تستحق الالتفات لقصورها الشديد، وسطحيتها الساذجة، ولكنها تلقي تشجيعًا من القوى المناهضة للدين الحنيف، والحرية، وهي قوى موالية في كل الأحوال للاستبداد والقهر.

الطابع الدعائي

ومن نماذج الروايات التي تعد مضادة للفن الروائي ما كتبه محمد عبد السلام العمري حيث يغلب عليها الطابع الدعائي، فمعظم رواياته تدور

على أرض الخليج وتحديدا المملكة العربية السعودية، ومن خلال قصص بعض المتعاقدين للعمل هناك يرصد ما يراه غريبًا وشاذًا في العلاقات والسلوكيات والتعامل مع المصريين وغيرهم، ومن خلال هذا الرصد يكشف عن موقفه الرافض للفكرة الإسلامية بصفة عامة وخاصة تطبيق القصاص على المجرمين، ويمتد هجاؤه من البشر إلى الطبيعة والأرض والأحوال الجوية، وفي الوقت نفسه ينحاز إلى ظواهر السلوك المنفتحة بغير حدود بين الرجل والمرأة، وتظهر في الروايات النزعة العنصرية لدى الطرفين صارخة وضارية ودامية ..

وبصفة عامة يبدو البناء الروائي أشبه بترجمة ذاتية للمؤلف، في صياغة عادية أو تحت العادية لا تشكل بصمة أدبية متميزة ..

(انظر على سبيل المثال روايته « صمت الرمل «، دار الهلال، القاهرة، ١٤٢٢ هـ = ٢٠٠٢م).

الصور المشوهة

وتأتي بعض سرديات الصحفي إبراهيم عيسى، لتصب في تقديم الصور المشوهة لعلماء الدين، ونزع الاحترام والتقدير عن أمهات المؤمنين والصحابة – رضوان الله عليهم- ففي كتابه «مولانا» الذي يسميه رواية (دار بلوميزي – قطر للنشر ، ط٢، الدوحة ، ٢٠١٢)، يعيش على غير عادة اليساريين قضايا إسلامية، بتصورات غير إسلامية من خلال بطل الرواية، وهو ما يعيدنا بصورة ما إلى رواية أخرى له هي « دم على نهد «(دار ميريت، القاهرة، ٢٠٠٨م)، حيث صوّر فيها أحد الدعاة المشهورين بصورة فصامية بعيدة عن الإخلاص والاستقامة دون أن يقدم مقابلًا إيجابيًا له.

«مولانا» تصور داعية قادرًا على تقديم مخرج لكل حدث يبدو متناقضًا مع طبيعة السلوك الإسلامي، وكأن علماء الدين كلهم كذلك، إنه عالم سوء تحركه السلطة ليحقق أهدافها، وهي أقرب للمنشور السياسي المكتوب بلغة هجين لا تستطيع أن تضعها في الفصحى الخالصة أو العامية الخالصة، فهي تمزج بين الاثنتين بصورة تبدو مفتعلة وغير محققة لجماليات التعبير الأدبي.

أما ما يسميه رواية «القتلة الأوائل.. رحلة الدم» (دار الكرمة للنشر،٢٠١٦) فتعتمد في أحداثها على أحاديث ضعيفة، وأخبار كاذبة مصدرها مراجع شيعية وطائفية، وتردد دعاوى قديمة غير صحيحة، ولا يليق بباحث مبتدئ أن يصدقها. ويصف الصحابة والمجاهدين في فتح مصر بالغزاة الصحراويين أو الغرباء أو الضيوف، وهم ظالمون وقتلة، يقمعون الشعب المصري بطريقة منهجية منظمة.

في الروايتين(مولانا، ورحلة الدم) نجد غزلًا غير عفيف للطائفيين، ووصفًا رقيقًا لشخصياتهم، وتصويرًا لإنسانية فياضة لم تسبغها الرواية على شخصية إسلامية واحدة!

اهتمام عريض

وتحظى جماعة داعش (تنظيم الدولة الإسلامية) باهتمام عريض لدى كتّاب الرواية في عالم التقوى ، دون أن يعالجوا طبيعة هذا التنظيم أو نشأته أو مكوناته أو تمحيص وجوده الذي طفا على سطح الواقع فجأة مدججًا بأسلحة حديثة وجديدة، ولم يتساءلوا عن سرعة نموه ، وقدرته المدهشة على احتلال مساحات واسعة في سورية والعراق، قبل أن تتنادى الدول الغربية والوثنية وبعض الدول العربية لتشكيل تحالف عسكري يقضي

عليه ، بعد أن قام هذا التحالف بتدمير مدن الحضارة العربية الإسلامية مثل الموصل وتدمر والرقة وحلب وحمص وحماه والغوطة وغيرها ، لقد حوّل التحالف الغربي الوثني كثيرًا من المدن الإسلامية إلى ركام ، وقتل عشرات الألوف من المدنيين الأبرياء وهجّر الملايين في قصف وحشي تحت دعوى محاربة الإرهاب والإرهابيين ، ومع ذلك فإن هذا التنظيم يقفز من مكان إلى آخر دون أن يخسر كثيرا من أفراده ومعداته.. كيف؟

روايات داعش.. تتفق على وصفهم بالقتلة والمتشددين والمتوحشين والشواذ جنسيًا.. وتتفادى الإشارة إلى الدول الإرهابية أو الداعشية التي تسفك دم أبنائها بأحط الوسائل وحشية وإجرامًا، وتهجرهم وتطاردهم، وتعذبهم في أسوأ السجون والأقبية.

روايات داعش

من الروايات التي تتناول داعش:

رواية «الليالي السود» لعبد الجبار المدوّري (منشورات فينيق، تونس، ٢٠١٦م)، وهي رواية من نوع الخيال السياسي. وتدور أحداثها في المستقبل عندما يفيق الشعب التونسي على خبر مرعب يتمثل في تمكن تنظيم "داعش" الإرهابي من احتلال مدينة قفصة وإعلانها ولاية تابعة له، ويهدّد باستعمال السلاح الكيمياوي في صورة تعرّضه إلى هجوم من القوات المسلحة التونسية. وترصد المقاومة والصمود في وجه التحجر والانغلاق الذي تمثله داعش، والرواية إنذار بأنّ الإرهاب ليس بعيدًا عن تونس، وأنّ ما حصل ويحصل في البلدان العربية من سيطرة "داعش" على مناطق بأكملها يمكن أن يحصل في تونس أيضًا.

«حبيبي داعشى» لمؤلفتها «هاجر عبد الصمد» (منشورات أكرم

الشريف، تونس ٢٠١٥) تناقش عددًا من قضايا المجتمع، مع إيصال رسالة غاضبة عن حقيقة تنظيم داعش من خلال حبكة الأحداث، وتدور أحداث الرواية حول فتاة مطلقة ترسلها الأقدار إلى قلب داعش مع مجموعة من الفتيات حيث يبدأ صراعها الطويل.

«لأجل غيث» للكاتب الإماراتي «حمد الحمادي»، (دار كتاب للنشر، دبي، ٢٠١٥م) وبطلها الطبيب «غيث» من الإمارات، درس في أميركا ووقع في قصة حب تدفعه إلى الانخراط في إحدى الجمعيات المتطرفة تقوده إلى عالم الإرهاب في تنظيم داعش، وتدور أحداث الرواية في عدة بلدان: الإمارات وأميركا وتركيا وسوريا، كما تتطرق الرواية ضمن أحداثها إلى وقائع حقيقية مثل تفجير تنظيم داعش لأحد المساجد في الكويت، وأيضًا تهتم بكشف ما تسميه أسرار التنظيم الدولي للإخوان.

وتتناول رواية «راقصة داعش» لأسماء وهبة من لبنان،(دار أبعاد، بيروت، ٢٠١٦م) قصة حب بين فتاة سورية ومقاتل في مخيمات اللاجئين السوريين في لبنان؛ بدءاً من الثورة وصولًا إلى الحرب في مدينة عرسال اللبنانية، وتتنقّل الأحداث بين عدة مدن وهى الرقة ومنبج في سوريا، وعرسال اللبنانية وبازرجق التركية، وتحذر من الانزلاق إلى الإرهاب ونفقه المظلم.

رواية «موسم الحوريات» لجمال ناجي (دار بلومزبري، مؤسسة قطر للنشر، الدوحة، ٢٠١٥م) ويتتبع السرد مسيرة الإرهـابي من صغره إلى أن يبلغ الاحتراف، وتضعنا الرواية في أجواء تهيمن عليها ثقافة الخوف والتطرف والإفراط في التعصُّب والتشدد الديني، الذي لم يسلم من تبعاته أخ أو أب أو أم، وتشهد أمكنة كثيرة العديد من

العمليات الإرهابية، كالقتل والذبح والسيارات المفخخة، والمفرقعات والتفجيرات والأحزمة الناسفة، ويصف السارد الإرهابيين بالكذب والخداع والتخطيط للاغتيالات مقابل الحصول على المال، والظفر في الآخرة بالحور العين والولدان المُخلّدين، وهي نغمة مكرّرة في معظم روايات الإرهاب.

وفي السياق نفسة تأتي رواية «ليل العالم» لنبيل سليمان (كتاب دبي الثقافية ١٤١، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠١٦م) لتقدم لنا شخصية مدرس لغة عربية يتقلّد منصب مدير ثانوية بنات في مدينة الرقة، لم يتزوج حتى بلغ الخمسين أو تجاوزها، ويبدو في سلوكه منساقًا لرغباته الغريزية في الخمر والفساد، محبًا للعلاقات المتحررة، ويكره ما يسمّيه بالإسلام السياسي، ويحمل على داعش وأصحاب اللحى والرايات السوداء وجماعات المقاومة الإسلامية للاستبداد البعثي، وينتقد تصرفاتهم وسلوكهم الاجتماعي دون أن يحاول تفسيره أو بيان أسبابه، ولا يكتفي بانتقاد الإسلاميين السوريين ، ولكنه يوجّه سهامه إلى الإسلاميين في الجزائر أيضًا!

ويحرص المدرس على إعلان انتمائه الطائفي للعلويين الذين يعيشون على الشاطئ السوري في اللاذقية، وإن كانت الرواية لا تكف عن الإعلان المضاد وإثبات أنه يؤمن بالوطنية التي ترفض الطائفية والمذهبية والعرقية، كما يبدو ودودًا مع النصارى، الذين يصورهم في إطار إنساني إيجابي للغاية، بعيد عن السلبيات من خلال علاقته براهب من أصول إيطالية.

وتتميز ليل العالم بما يمكن تسميته الجفاف التعبيري وخشونة الأداء المباشر، وطغيان الفكرة المعادية للإسلام على الصياغة الأدبية الناعمة.

الحفاوة النقدية

في الصفحات التالية اخترت مجموعة من الروايات للدراسة النقدية، تكشف عن تغلغل فكرة العداء للإسلام في تصورات الكتاب، وافتعال صراع لا وجود له بين قوى المجتمع، والفجوة الواسعة بين التعبير الأدبي والمنشور الدعائي، ومحاولات النسوية في مصر والعالم الإسلامي التعبير عن المرأة بتصور غربي محض يتبنى المفاهيم المغايرة للمفاهيم الإسلامية، ومعظمها ينصاع لفكر الاستبداد وطغيان السلطة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

وقد مهّدت للدراسة ببيان حول الحفاوة التي تلقاها هذه الروايات من بعض النقاد الذين يتصدرون المشهد الثقافي الرسمي، بوصفهم موجهين للسياسة السائدة، التي تجعل من الإرهاب الحقيقي أو الوهمي وسيلة للقمع والتنكيل، والإقصاء والاستئصال.

وفي الخاتمة تصور لما يمكن بناؤه في العالم الروائي العربي ليخدم المستقبل على مستوى الأفراد والأوطان.

هذا وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

رجب ١٤٣٩هـ
إبريل ٢٠١٨م
حلمي محمد القاعود